لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

فلسطين من الفتح العربي الاسلامي
إلى أواسط
القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

الدكتور نبيه عاقل

- ولد في كفر عارم (محافظة إدلب) عام ١٩٢٩.
- يحمل الليسانس في التاريخ ودبلوم التربية من جامعة دمشق، والدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن.
- يشغل حالياً منصب أستاذ كرسي تاريخ الأمة العربية والإسلام في كلية الآداب بجامعة دمشق، ومنصب الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية. وشغل مناصب: رئيس قسم التاريخ، وكيل كلية الآداب، عميد كلية الآداب، وكيل جامعة دمشق، ورئيس قسم التاريخ وعميد كلية التربية في جامعة الإمارات العربية المتحدة.
- له عدد من المؤلفات في تاريخ الأمة العربية، وفي التاريخ البيزنطي، وتاريخ الحضارة، والمجتمع العربي، والمدخل إلى دراسة التاريخ، والتاريخ الاجتماعي للعصر الأموي. وله عدد من البحوث العلمية بالعربية والإنكليزية قدمت إلى المؤتمرات والندوات العربية والدولية التي شارك فيها، أو نشرت في الدوريات العلمية المتخصصة العربية والأجنبية.

فلسطين من الفتح العربي الاسلامي
إلى أواسط
القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

الدكتور نبيه عاقل

● ولد في كفر تخاريم (محافظة إدلب) عام ١٩٢٩.

● يحمل الليسانس في التاريخ ودبلوم التربية من جامعة دمشق، والدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن.

● يشغل حالياً منصب أستاذ كرسي تاريخ الأمة العربية والإسلام في كلية الآداب بجامعة دمشق، ومنصب الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية. وشغل مناصب: رئيس قسم التاريخ، وكيل كلية الآداب، عميد كلية الآداب، وكيل جامعة دمشق، ورئيس قسم التاريخ وعميد كلية التربية في جامعة الإمارات العربية المتحدة.

● له عدد من المؤلفات في تاريخ الأمة العربية، وفي التاريخ البيزنطي، وتاريخ الحضارة، والمجتمع العربي، والمدخل إلى دراسة التاريخ، والتاريخ الاجتماعي للعصر الأموي. وله عدد من البحوث العلمية بالعربية والإنكليزية قدمت إلى المؤتمرات والندوات العربية والدولية التي شارك فيها، أو نشرت في الدوريات العلمية المتخصصة العربية والأجنبية.

المحتويات

الفصل الأول ـ **التاريخ السياسي لفلسطين**	٢٥٧
أولاً ـ الفتح العربي لفلسطين	٢٥٧
ثانياً ـ فلسطين في عهد الراشدين والأمويين	٢٧٣
ثالثاً ـ فلسطين في العصر العباسي	٢٧٧
الفصل الثاني ـ **فلسطين إدارياً وبشرياً**	٢٩٤
أولاً ـ سكان فلسطين	٢٩٤
ثانياً ـ التنظيم الإداري بفلسطين	٢٩٩
الفصل الثالث ـ **الحياة الاقتصادية**	٣٠٦
أولاً ـ التنظيم المالي	٣٠٦
ثانياً ـ النقود	٣١٣
ثالثاً ـ الزراعة والصناعة والتجارة	٣١٥
الفصل الرابع ـ **الحياة الفكرية والعمرانية**	٣٢٠
أولاً ـ العلوم	٣٢٠
ثانياً ـ بعض ملامح العمران في فلسطين	٣٢٥
الحواشي	٣٣٤
المصادر والمراجع	٣٤٥

الفصل الأول
التاريخ السياسي لفلسطين

أولاً ـ الفتح العربي لفلسطين:

كانت فلسطين كبقية بلاد الشام، قبل الفتح العربي الإسلامي، تقع تحت حكم الامبراطورية البيزنطية، وكانت في صلب الأحداث التي نجمت عن الحروب الانتقامية التي شنّها الإمبراطور البيزنطي هيراكليوس (هرقل) على فارس رداً للهجوم الذي قام به كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) على ممتلكات بيزنطة في الأناضول، ومن ثم احتلاله لأنطاكية ودمشق وبيت المقدس التي تركها نهباً للحرائق ودمر فيها كنيسة القيامة وسواها من بيوت العبادة، وأعمل السيف في أهلها وذلك في العام ٦١٤م، كما حمل معه الصليب المقدس، وعاد به إلى عاصمته. واستطاع هيراكليوس بعد سنوات طويلة من الاستعداد أن يرد الضربة لفارس، ويسترد ما فقده من أرض، ومن جملتها فلسطين، وأن يعقد مع فارس معاهدة صلح وقّعها معه قباذ ـ شيرويه (ابن كسرى الثاني الذي عزل والده عن العرش وقتله سنة ٦٢٨م)، اعترف، فيها الكسرى الفارسي الجديد بالسيادة البيزنطية. وأعاد هيراكليوس نصب خشبة الصليب المقدس، وعاد إلى القسطنطينية يرفع رايات الانتصار بعد أن أنهكه وأنهك إمبراطوريته قتال طويل استنزف قواه وقوى جيشه واستنفد ما كان في خزائنه من أموال[1].

كان الحكم الفارسي لبلاد الشام قد دام ما يقارب الاثنتي عشرة سنة فقدت خلالها بيزنطة الكثير من نفوذها وهيبتها، وضعف ولاء أهل الشام وقبائلها للامبراطور البيزنطي. وقد تبدى ضعف الولاء القبلي العربي لبيزنطة على أوضح وجه في المناطق الجنوبية (فلسطين)، لا سيما وأن المساعدة المالية التي كانت تدفعها بيزنطة لهذه القبائل مقابل حراسة الحدود قد أوقفت من قبل هيراكليوس، وأن الحصون والمواقع الدفاعية التي كانت تمتد على الحدود الجنوبية والشرقية قد أُهملت وأُفرغت من الحاميات التي كانت تقيم فيها لاستخدامها في الحرب ضد فارس[2]. أما الوضع الاقتصادي فقد كان في تدهور مستمر في جميع البلاد الخاضعة للامبراطورية البيزنطية بسبب الحروب الطويلة التي خاضتها الامبراطورية ضد أعدائها الكثر، وعلى رأسهم فارس، وكانت هناك شعوب بدائية تقطن الأرض البيزنطية، الأمر الذي أدى إلى فراغ الخزينة من جهة، وتعسف الدولة في جباية الضرائب من جهة أخرى أو فرض ضرائب جديدة. وقد انعكست آثار الأزمة الاقتصادية على الأوضاع في فلسطين، وجاء الاحتلال الفارسي لها ليزيد الأوضاع سوءاً، فتعطلت الزراعة وخربت المدن وكثر السلب والنهب. ولما استعاد البيزنطيون فلسطين من قبضة الفرس أجبروا أهلها على دفع الضرائب وكانوا قد دفعوها لفارس[3].

ولم تكن الحال بأفضل في المجال الديني، إذ ان الانشقاق في

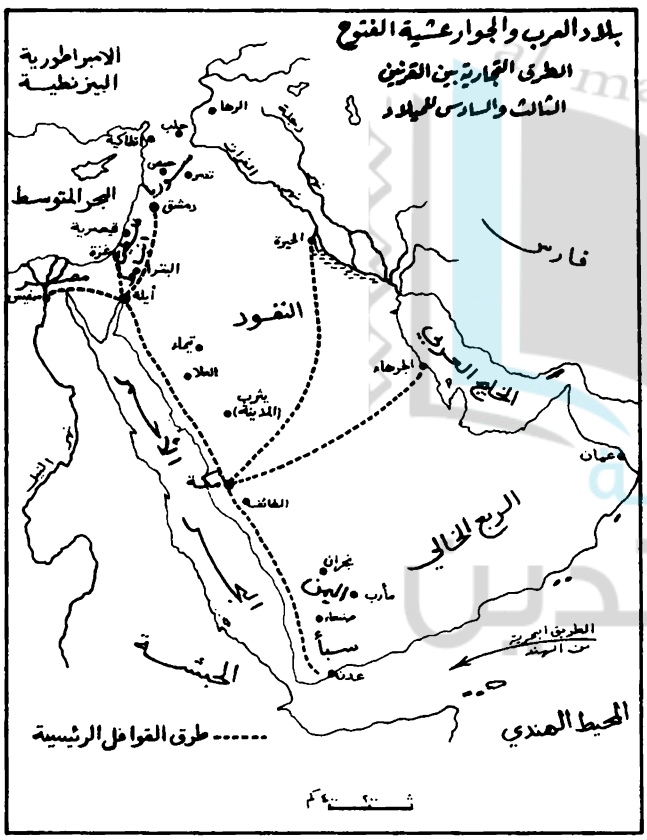

الكنيسة الذي حدث في منتصف القرن الخامس أدى إلى تصدع وحدة المجتمع الروحية. ونجم عن الصراع الديني في هذه الفترة ظهور تيارين دينيين كبيرين: تيار تتبناه القسطنطينية وتعتبره مذهب الامبراطورية الرسمي، وهو المذهب الأرثوذكسي، وتيار ديني شرقي يتمثل في كنيسة شرقية تتبنى القول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح وهو المذهب الذي يعرف باسم المونوفيزية (وأتباعها يعرفون باليعاقبة). وقد كان مسيحيو فلسطين يتبعون مذهب الطبيعة الواحدة الذي تعتبره القسطنطينية هرطقة دينية. هذا فضلاً عن الخلاف الذي كان قائماً بين من يتبعون النصرانية من سكان فلسطين والقلّة من سكانها الذين إما كانوا يهوداً أو سَمَرة أو سواهم من الذين ظلوا على الوثنية. وقد أدى هذا التفكك في المجال الروحي إلى تعميق الهوة بين السلطة البيزنطية وبين سكان فلسطين بعامة: مَن كان منهم على النصرانية أو سواها.

قد يكون المدخل المناسب لهذه الفترة من بحثنا سؤال كثر حوله الجدل وتعددت الآراء: كيف ابتدأت عملية الفتح بعامة، وماذا كان الهدف منها. ونرى أنه في الإجابة على هذا التساؤل ما يُعين أيضاً على فهم موقف سكان بلاد الشام، وفلسطين منها، من الفتح الذي أدى إلى وقوع بلادهم تحت حكم الدولة الإسلامية.

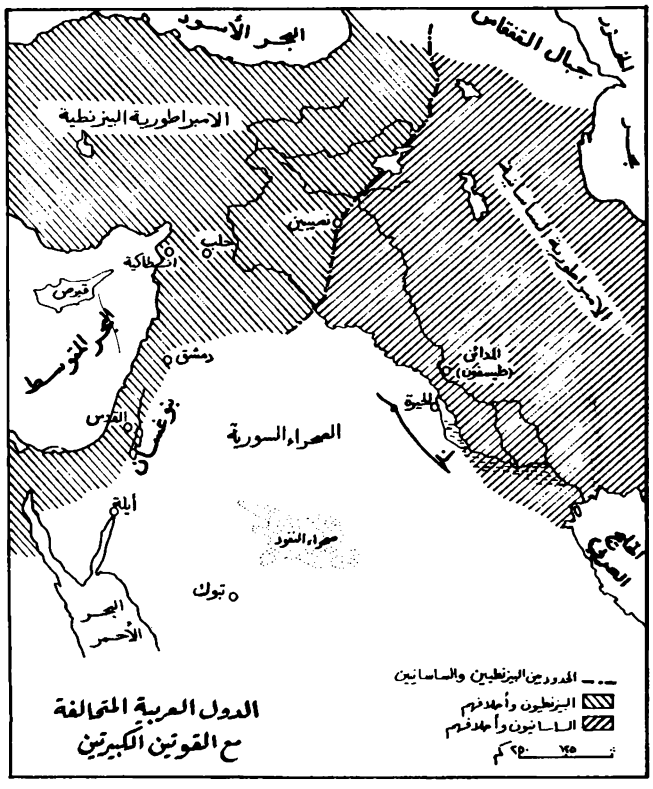

في تاريخ الطبري[٤] روايات ثلاث يفهم منها أن أبا بكر ما كاد يفرغ من أمر الردّة حتى أمر خالداً بالتوجه إلى العراق لفتحه، وكأن الأمر كان بالنسبة له جزءاً من مخطط معدٍّ سلفاً، جاءت الردّة فأخّرت تنفيذه، وما كادت الأمور تستقر حتى هُرع الخليفة الأول ليمضي قُدماً فيما كان قد خطط له من قبل. أما أبو مخنف فيقدم لنا صورة مغايرة للصورة السالفة التي اعتمد فيها الطبري على روايات نقلها عن الشعبي والواقدي، إذ يذكر أن المبادرة جاءت من المثنى بن حارثة الشيباني، القائد الذي لعب دوراً مشرفاً أثناء حروب الردة، ويقول إن المثنى جاء إلى أبي بكر في المدينة، وقال له: أمِّرني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي. فقبل الخليفة الأول الفكرة وأجاز له ما اقترح[٥]. وفي هذين الموقفين اللذين يتخذهما الرواة من قضية بدء الفتوح منطلق لتساؤل هام لا بد أن يجلى قبل المضي قُدماً في أي حديث يتعلق بالفتح: أحداثه، أم موقف السكان المحليين منه. وهذا التساؤل في رأينا، لا بد أن ينصبّ على إيضاح الأمر التالي: هل كان بدء الفتوح جزءاً من خطة أبي بكر السياسية كخليفة ورأس للجماعة الإسلامية، أم هل كان أمراً عفوياً بُدئ بمبادرة من المثنى، ، وافق عليها أبو بكر، وسارت أول الأمر في درب غير مرسومة، ثم ما لبثت بعد نجاحها أن غدت جزءاً من الخطة السياسية لحكومة الراشدين ومن تلاها؟!

وفي الإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار أن رواية أبي مخنف التي تجعل المثنى صاحب زمام المبادرة في بدء عملية الفتح تفترض أن الخليفة وضع أمام أمر واقع لا يد له فيه. ولا يُعقل أن تكون عملية كعملية الفتح التي أدت إلى تقويض صرح دولتين كبيرتين مثل الروم والفرس نتيجة صدفة، ومبادرة فرد غير مسؤول. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الجهاد لنشر الإسلام شريعة من شرائع الإسلام وأن الرسول ﷺ قبل أن يُتوفى سار في هذا الطريق داخل الجزيرة وخارجها، وقام هو بالذات بإرسال البعوث إلى تخوم الشام، وجدنا أن النية والتخطيط للفتح كانا موجودين قبل أبي بكر، وأن ما فعله أبو بكر لم يكن إلا استمراراً لخطة بدأها الرسول بالذات. هذا فضلاً عن أن فكرة الفتح ونشر الإسلام خارج حدود الجزيرة، فكرة تتناسب مع مبدأ عمومية الدعوة التي تنزّلت على قلب الرسول الأمين، وعمومية الدعوة تقتضي ألا يقتصر نشر الإسلام بين عرب الجزيرة فحسب، بل بين العرب القاطنين خارج الجزيرة، وبين أمم الأرض جميعاً.

وإلى جانب هذين الموقفين من قضية بدء عملية الفتوح،

هناك موقف ثالث، يطرحه بعض الباحثين المحدثين[٦]، يجعل من عملية الفتوح استمراراً للأعمال العسكرية ضد المرتدين، ويبرز المبادرة الفردية لخالد بن الوليد في هذا الأمر، كما يؤكد على العامل الاقتصادي لدرجة القول ان من تبع خالداً من رجال كان يدفعهم دونما شك حب الحصول على الغنائم، وأن هذا ليس بجديد في تاريخ العلاقات العربية الفارسية. فمنذ الفترة السابقة للإسلام كان العرب يُغيرون على الأرض الفارسية بقصد كسب الغنائم، وأن هذه العادة استمرت رغم قيام الإسلام[٧]. وغير خاف أن مثل هذه الآراء، على ما فيها من تجنٍّ على الحقيقة التاريخية التي تثبت المصادر المعتمدة خطأها بوقائع وأحداث لا مجال للدخول في تفاصيلها للرد على مثل هذه المزاعم[٨] التي تحرم حركة الفتح العربي من مضامينها الحضارية وأهدافها العقائدية والتحريرية، وتجعلها عملية غزو واعتداء بقصد سلب الآخرين خيراتهم. إن المؤرخ الموضوعي لا يبيح لنفسه أن يجعل السبب في توجه الجيوش العربية لفتح العراق هو توقف التجارة العربية بسبب حروب الردة، وأن هذا التوقف جعل هذه الغزوات ضرورة اقتصادية بالنسبة للمسلمين تعوضهم عما فقدوه من ريع تجارتهم.

وهكذا، فالفتوح في رأينا، جزء متمم وتنفيذي لفريضة الجهاد في سبيل نشر الإسلام المنبثق عن مبدأ عالمية الدعوة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن موقف سكان البلاد المفتوحة من الفتح والفاتحين لا بد أن يتحدد من خلال أمور أساسية أهمها: مصالحهم، ومعتقداتهم الدينية، وما قد يكون بين هذين الأمرين من تلازم أو تعارض، أو رجحان أحد الأمرين على الآخر، هذا فضلاً عن الهوية العرقية للعناصر السكانية في البلاد المفتوحة، وما لهذه الهوية من دور في تحديد المواقف.

ولعل أول ما يسترعي الانتباه في هذا المجال ما ينقله لنا ابن أعثم الكوفي عن أبي بكر إذ يقول لأبي عبيدة وهو يتوجه للمشاركة في فتح بلاد الشام: «... فَبُثَّ خيلك في القرى وفي السواد، ولا تحاصرنَّ مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري»[٩]. وكان أبو عبيدة أحد القادة الأربعة الذين وجههم أبو بكر وأمرهم أن يكون خط سيرهم عبر تبوك إلى البلقاء[١٠]. إن في هذا الأمر الذي يصدره أبو بكر لقائده، وفي إلحاحه على تجنب دخول المدن في هذه المرحلة المبكرة من الفتح إلا بأمره، والالتزام بالقرى والسواد فحسب، ما يجعل المرء يتساءل عن السبب في ذلك. وعندنا أن الإجابة على هذا التساؤل تقتضي معرفة التركيب السكاني للقرى والسواد من جهة، وللمدن من جهة أخرى، لأن أبا بكر، على ما نعتقد، كان يود أن يجنِّب قواده صداماً كبيراً مع العدو في المرحلة الأولى من الفتح. كما أن سير عملية الفتح يُظهر لنا بما لا يقبل الشك أن مدن بلاد الشام الرئيسية، كدمشق والقدس وغزة وبُصرى وعمّان وجرش ومدن الساحل وسواها، لم تطأها خيول الفاتحين الأول، لا بل جاء فتحها في المرحلتين الثانية والأخيرة. وكل ذلك يؤشر باتجاه أن سكان المدن كانوا في الغالبية من الأعداء، وأن سكان القرى والسواد كانوا أقل عداوة، أو أقرب إلى الصداقة. يضاف إلى ذلك أنّا لا نجد في المصادر غير العربية (اليونانية والسريانية مثلاً) إشارة إلى العمليات التي جرت في المرحلة المبكرة من الفتح، وذلك لأن هذه العمليات لم تطل المدن التي كانت مستقر القوة البيزنطية والعناصر السكانية الصديقة لبيزنطة، وبالتالي فهي لم تشكّل في نظرهم خطراً حقيقياً بعد.

ويقودنا ذلك لأن نستنتج أن الخليفة في المدينة كان يهمه أن يمد سلطانه على القبائل العربية التي كان بعضها يعيش في مناطق التخوم السورية أو في بعض القرى الواقعة بين الحجاز والشام. وفي هذا انسجام تام مع الهدف الأساسي من الفتح، ألا وهو نشر الإسلام بين العرب أولاً، وسواهم من الأمم بعد ذلك، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً من أن هدف الفتح لم يكن استعماراً لأرض جديدة أو تنشيطاً لتجارة بارت بسبب حروب الردة، وإنما تحقيق لفريضة الجهاد في سبيل نشر الدين. وقد يكون من المفيد في هذا المجال أن نذكر أن سكان بلاد الشام في المرحلة الأولى من الفتح كانوا على نوعين: عرباً وغير عرب. أما العرب فهُم بدو القبائل الرحّل، وأنصاف الرحّل، وبعض القبائل التي استقرت في قرى في منطقة التخوم، وهؤلاء هم الذين قصدهم أبو بكر حين قال لأبي عبيدة: «... فبث خيلك في القرى وفي السواد...» وأما غير العرب، فقد قصدنا بهم سكان المدن الذين كانوا يتكلمون خليطاً من اللغات. فالفلاحون الذين كانوا يسكنون المناطق القريبة من الساحل والمناطق الجبلية كانوا يتكلمون لهجات آرامية. أما سكان تخوم البادية وجنوب فلسطين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالقبائل العربية الرحّل وكذلك الفلاحون الذين كانوا يسكنون بعض القرى في تلك المنطقة، فكانوا يتكلمون العربية لما قام بينهم وبين القبائل العربية من صلات زواج ودم. وهكذا فقد كان الصدام الأول بين الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية وبين سكان بلاد الشام صداماً بين فريقين تربطهم رابطة الدم واللغة، غير أن سكان القرى في بلاد الشام كانوا يعيشون حياة استقرار لا حياة بداوة وترحّل[١١].

ويقودنا ذلك إلى ضرورة الحديث عن الوجود القبلي العربي في بلاد الشام قبل الإسلام، وعلاقة دولة الإسلام بهذه

القبائل، وذلك بالقدر الذي يقتضيه هذا البحث عن الفتح العربي لبلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة، والقبائل العربية التي واجهها الفاتحون العرب الأوائل في هذه البلاد.

فمن بين هذه القبائل بنو عذرة وبنو سعد هذيم الذين كانوا يعيشون في الطريق الذي يمتد من شمال الحجاز إلى بلاد الشام، والذين كانت بعض أفخاذهم وبطونهم تتجول بين وادي القرى وبين تيماء في الشمال[١٢] وقد اتصل بهم الرسول ﷺ أثناء الفترة الأخيرة من حياته، ولكنّا لا نعرف الكثير عن ماهية هذه الاتصالات، اللهم إلا ما جاء في المصادر عن بعض الغزوات والوفود التي زارته في عام الوفود. إذ يُفهم مما نقرأه عند الواقدي عن غزوة تبوك أن بعضاً من بني عذرة وبني سعد هذيم اعتنق الإسلام قبل هذه الغزوة، وأن بعضهم أسلم بعدها[١٣]، كما يُفهم مما جاء عند ابن هشام أن أحد قادة المسلمين في مؤتة عندما تعبأوا للقاء الروم كان رجلاً من بني عذرة يُقال له قطبة بن قتادة[١٤]. ويبدو أن قطبة لم يكن وحده، بل كان على رأس جماعة من بني قومه يقاتلون في صف المسلمين. أما ابن سعد فيحدثنا

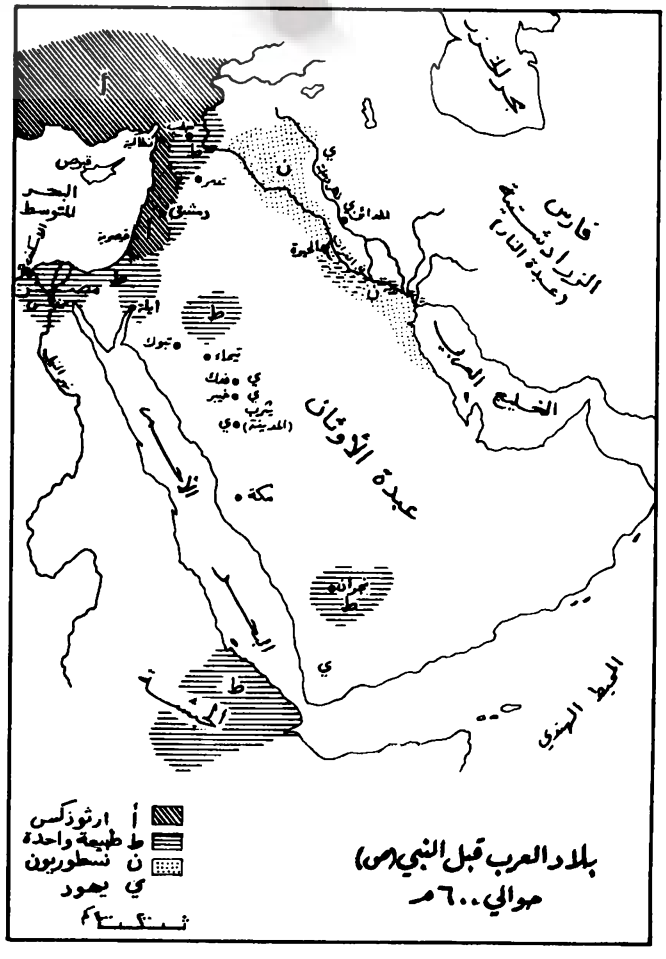

عن وفد عذرة الذي قَدِم على الرسول في صفر سنة ٩هـ/٦٣٠م وأسلموا بعد أن حدثهم الرسول بحديث الإسلام[١٥]، وكذلك وفد سعد هذيم الذي أسلم وأجازه الرسول ﷺ بأواق من فضة[١٦]. ويبدو أن الرسول ﷺ قد ولّى على من أسلم من سعد هذيم شخصاً يُسمى معاوية الوائلي، ولكن معاوية هذا ما لبث أن ارتد بعد وفاة الرسول، فأرسل إليه أبو بكر، وإلى سواه من المرتدين في الشام، أسامة بن زيد، فهرب معاوية مع من هرب من المرتدين والتجأ إلى دومة، ولكن أسامة أصابهم وحازهم و «انكفأ سالماً غانماً»[١٧]، وكان بنو عذرة وسعد هذيم زمن الرسول ﷺ ممن يدفعون الصدقات، وكان على عمالة صدقاتهم عمرو بن العاص[١٨]. ويوصلنا كل ذلك إلى القول ان هاتين القبيلتين كانت لهما علاقات وطيدة مع حكومة المدينة منذ زمن الرسول، وأن دورهما زمن الردة كان ضعيفاً، وأنهما حين قامت خلافة الراشدين وقمعت حركة الردة وتوجهت إلى الفتح لم تقفا موقفاً معادياً منها.

أما قبيلة بلي، فما نعرفه عن صلاتها بالرسول ﷺ يمدنا بعون أكبر. فقد سكن جزء من هذه القبيلة بعضاً من أرض الحجاز وتهامة قرب شاطىء البحر الأحمر، وفي غرب وادي القُرَى والحُجْر. أما بنو إراشة، وهم فرع من بلي فقد سكنوا شمالاً في منطقة البلقاء في بلاد الشام، وبذا كانوا على مقربة من السلطة البيزنطية التي كانت تحكم هذه البلاد، وقد وقفت فروع هذه القبيلة التي تقطن في الشمال موقفاً معادياً من الرسول منذ أوائل دعوته. ويعود سبب ذلك إلى أنهم كانوا مع فئات قبلية أخرى تسكن على تخوم الشام في حلف مع السلطة البيزنطية الحاكمة. وساهموا في قتال جيش المسلمين في مؤتة في العام ٨هـ/٦٢٩م، وأوقعوا بهذا الجيش ما نعرفه من هزيمة. حتى ان قائد التحالف القبلي البيزنطي الذي قاتل المسلمين في هذه الغزوة كان رجلاً من بني إراشة من بلي يُقال له مالك بن زافلة[١٩]. وقد استمر هذا العداء بين بلي والرسول بعد مؤتة إذ «بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة. . . وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب، وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم، كانت أم العاص بن وائل بلوية، فأراد رسول الله ﷺ أن يتألفهم بعمرو»[٢٠]. وهذه هي الغزوة التي تُعرف باسم غزوة ذات السلاسل. وقد وصل عمرو بلاد بلي وقهرها وأجبر أهلها

على الهرب والتفرق[٢١]. ويبدو أن الرسول أراد أن يمحو آثار هزيمة مؤتة. ولعل ذات السلاسل ومؤتة من قبلها إنما هدفتا دعوة القبائل العربية النازلة هناك للدخول في الإسلام من جهة، وترك الانحياز للبيزنطيين وتذكيرهم بما لهم من رحم مع المسلمين، من جهة أخرى.

وإذا كانت فروع بلي النازلة في الشمال قد ناصبت محمداً ﷺ العداء فإن فروعها التي كانت تنزل الحجاز أقامت معه صلات أكثر وداً. فقد كان بين الكثير من رجالات بلي وبين أهل المدينة تحالفات قبل اعتناق المدينيين للإسلام، وحين أسلموا ظلت هذه التحالفات قائمة. كما يبدو أن بعض البلويين كانوا يقيمون في المدينة حين هاجر إليها الرسول كحلفاء لبعض بطون الأنصار، فلما أسلم هؤلاء أسلموا وكانوا من أوائل الصحابة وقاتلوا معه في بدر[٢٢]. وحين أرسل محمد ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، كان يتوقع أن يكون البلويون الشماليون عوناً له في حربه ضد الروم ومن حالفهم من العرب، لما كان بينه وبين بني قومهم القاطنين في الحجاز من صلات ود وتآزر، حتى ان جيش عمرو كان يضم بعض البلويين الشماليين، وأن محمداً أوصاه بأن يستعين بمن «مرَّ به من العرب، وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين» كما أسلفنا. وقد حقق عمرو بعض النجاح في هذا المجال، إذ انضم إليه ما يقارب المئتي رجل، واستغل في سبيل ذلك ما كان بينه وبينهم من رحم. ولم تمض أشهر قليلة على نصر ذات السلاسل التي وقعت في العام ٩هـ/٦٣٠م، حتى كان وفد من بلي يزور الرسول في عام الوفود ويقدم له فروض الطاعة والولاء ويعلن إسلامه، فيكرمه الرسول ويأمر له بالجوائز[٢٣]. على أنّا لا نستطيع الجزم فيما إذا كان ولاء بلي للإسلام قد استمر بعد وفاة الرسول ﷺ، لأن في المصادر ما يشير إلى أن عمرو بن العاص أثناء خلافة أبي بكر وبعد ردة بعض القبائل، أغار على بلي وبعض القبائل الأخرى، الأمر الذي قد يُفهم منه أن بلياً كانت ممن ارتد عن الإسلام[٢٤].

ومن القبائل التي يمكن الحديث عنها في هذا المجال قبيلتا جذام ولخم. فقد سكنت جذام في المنطقة الممتدة من تبوك إلى شرق وادي عربة والبحر الميت حتى منطقة البلقاء حول عمّان. كما ساكنها في هذه المنطقة فروع من لخم، القبيلة ذات الصلات القديمة ببلاد الشام. وكانت لخم تسكن أيضاً في فلسطين، وذلك في المنطقة الواقعة غرب البحر الميت ونهر الأردن[٢٥]. وكان بين هاتين القبيلتين وبين الرسول صلات، ولا سيما في الفترة الأخيرة من حياته، كما كانت ضد التحالف القبلي الخاضع لبيزنطة والذي حارب المسلمين في مؤتة في العام ٨هـ / ٦٢٩م. وجاءت غزوة تبوك رداً على ما كان يصل الرسول من أخبار الشام من أن الروم قد «جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة. وزحفوا وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها»[٢٦]. ويوضح ذلك أن بطوناً من لخم وجذام كانت حتى وفاة الرسول تقف في الصف البيزنطي وتعارض قيام دولة عربية إسلامية. كما أنّا لا نجد في مصادرنا ما يشير إلى إسلام عدد كبير من رجالات هاتين القبيلتين في المرحلة المبكرة من قيام دولة الإسلام[٢٧]، وأن من أسلم منهم إنما جاء إسلامه في الفترة السابقة لوفاة الرسول مباشرة، إذ يذكر الطبري أنه في العام ٩ للهجرة قَدِم على الرسول وفد من الداريين من لخم عدده عشرة أشخاص[٢٨]، وأن الرسول أكرمهم وأقطع أحد زعمائهم أرضاً[٢٩]. كما يذكر ابن هشام أن قبيلة من لخم يُقال لها حَدَس قد اعتزلت قومها في مؤتة ولم تقاتل المسلمين[٣٠]. ولكن هذين الخبرين لا يقدمان دليلاً كافياً على علاقات طيبة قامت بين دولة الإسلام وبين لخم. أما بالنسبة لجذام، فيبدو أن تعاظم قوة الرسول بعد فتحه مكة ونصره على قريش، قد أغرى بعض الجذاميين لإقامة علاقات ود معه. ومن زعماء جذام الذين أقاموا مثل هذه العلاقة فروة بن عمرو الجذامي، الذي كان يحكم باسم الروم القبائل النازلة حول عمان ومعان واعتنق الإسلام وأهدى للرسول بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم، ثم ضربوا عنقه وصلبوه[٣١]. ومن هذا القبيل أيضاً ما نقرأه عند ابن هشام عن غزوة زيد بن حارثة إلى جذام التي وقف فيها بنو الضبيب، وهم رهط من جذام «ممن كان أسلم وأجاب» إلى جانب زيد بن حارثة الذي جاء على رأس جماعة من المسلمين ليقتص من الجذاميين الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي رسول محمد ﷺ إلى قيصر صاحب الروم وهو في طريق عودته إلى المدينة. وقد ساهم سائر بني الضبيب الجذاميين في حملة زيد وساعدوه على الاقتصاص من المعتدين[٣٢]. ويبدو أن عدد من أسلم من جذام زمن الرسول كان كبيراً، حتى ان الرسول أرسل عمرو بن العاص ليجمع الصدقات المترتبة عليهم وعلى لخم، هذا فضلاً عن صدقات بني عذرة وسعد هذيم[٣٣]. وحين قامت حركة الردة كان بنو الضبيب بين المرتدين، فسار إليهم أسامة بن زيد مغيراً وأصابهم، كما أصاب من ارتد من بني لخم، وذلك زمن خلافة أبي بكر[٣٤].

أما قبيلة القَيْن (أو بَلْقَين) فكانت تعيش في المنطقة الواقعة شرق ديار لخم وجذام، أي المنطقة الممتدة من وادي ثَجْر، شمال

تيماء، بمحاذاة وادي السِّرْحان، وباتجاه الشمال إلى تخوم حوران[٣٥]. وقد ورد ذكرهم في غزوة ذات السلاسل في نص يُفهم منه أن بلادهم كانت تجاور بلاد بلي وعذرة[٣٦]. ويبدو مما تذكره بعض المصادر أنهم كانوا ضمن التحالف القبلي الموالي للبيزنطيين في غزوة مؤتة[٣٧]، كما أنه ليس لدينا ما يؤكد أنه كان منهم من أسلم مبكراً، أو كان بين صحابة الرسول، ويمكننا أن نستنتج مما يذكره الطبري في أحداث سنة ١١هـ/٦٣٢م أن بعضهم أسلم قبل وفاة الرسول، وأنه ولّى عليهم عمرو بن الحكم، ولكن بعضاً منهم ارتد، وكان زُمَيْل بن قطبة زعيم الفئة القينية المرتدة، ولكن عمرو بن الحكم بقي على إسلامه، وساهم مع أسامة بن زيد في قمع فتنة المرتدين من قومه[٣٨].

ويوصلنا كل ذلك إلى القول ان الرسول استطاع في أخريات حياته أن يضم بعضهم إلى الإسلام، ولكن غالبية القَيْن كانوا إما في تحالف مع السلطة البيزنطية الحاكمة في بلاد الشام، أو وقفوا موقفاً محايداً من القوتين: الإسلامية والبيزنطية.

١ ــ مقدّمات الفتح:

بعد هذا العرض السريع للقبائل العربية التي كانت تنزل بلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة، وعلاقتها بالرسول ﷺ، يمكننا القول ان الرسول حاول، بعد أن وطد نفوذه في الحجاز، وإلى حد ما في أغلب أصقاع الجزيرة العربية، أن يمد سلطان دولته على الجماعات القبلية المقيمة في شمال الحجاز وجنوب سوريا، وأنه في سبيل ذلك قام ببعض الغزوات وأرسل بعض السرايا. وعلى الرغم من أن غزوتي ذات الأطلاح ومؤتة لم تحققا له نصراً، فإن غزوة ذات السلاسل مكنته من أن يمد نفوذه على منطقة وادي القرى وشمال الحجاز. كما مكّنته غزوة تبوك من أن يُخضع عدداً من المدن أو المراكز الحضرية في شمال الحجاز وجنوب سوريا إلى سيادة دولة المدينة. وكان العنصر البشري الذي أُخضع هو في الغالب من القبائل العربية المتبدية أو نصف المرتحلة. وقد اختلفت طبيعة العلاقة التي نجمت عن هذا الخضوع من جماعة إلى أُخرى. فبعض القبائل خضعت للرسول بشروط تحفظ لها سيادتها، على أن تقوم بينها وبينه ما يمكن تسميته في وقتنا الحاضر بمعاهدة عدم اعتداء. في حين أن قبائل أُخرى اعتنقت الإسلام وعاشت حياة استقرار في المواقع التي كانت تنزل فيها، وغدت كسواها من القبائل المسلمة. هذا فضلاً عن نوع ثالث من القبائل كانت تدفع الصدقة وعليها أمير مسلم يجبي صدقاتها[٣٩].

ولم تكن سيطرة المدينة على هذه القبائل واحدة، بل اختلفت من قبيلة إلى أخرى، كما هو واضح من سياق عرضنا السابق. إلا أننا نستطيع القول ان نفوذ الرسول في أخريات حياته قد انتشر بين الجماعات القبلية شمالاً ليشمل حتى القبائل النازلة في منطقة خليج العقبة ووادي رَمّ. فقبائل سعد هذيم وعذرة، والبطون الجنوبية من بلي، وفرع ضبيب من جذام، وبنو الدار وبنو حَدَس من لخم، وبعض من بني القين، وبعض من كلب، وبعض من غسان ولا سيما من كان منهم يعيش في الحجاز، غدوا جميعاً حلفاء للرسول لبعض الوقت، هذا فضلاً عن أن المدن الرئيسية في هذه المنطقة، كتيماء وتبوك ومستوطنات وادي القرى، كانت هدفاً لغزوات ناجحة من قِبل جيش المدينة. ويبدو أن الرسول استطاع أن يمد سلطانه على الجماعات القبلية النازلة في هذه المنطقة قبل أن يطال نفوذه المدن والمستوطنات، إذ يورد الواقدي ما نصه: «وكانت دومة، وأيلة، وتيماء، قد خافوا النبي ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت»[٤٠]. وهكذا فإن إسلام هذه القبائل كان السبب الذي دعا حاكم أيلة من قبل بيزنطة، يوحنا بن رؤبة، لأن يتصل بالرسول حين كان في تبوك وأن يطلب منه الصلح على الشروط التي صالح عليها دومة الجندل. كما فعل الشيء ذاته أهل جرباء وأذرح ومَقْنا، وكلها مدن قرب أيلة، فكتب لهم الرسول كتباً وصالحهم على دفع الجزية، وأعطاهم الأمان واعتبرهم ذمة الله ورسوله[٤١]. أما فروة بن عمرو الجذامي، عامل معان وحاكمها من قبل البيزنطيين، فقد سار شوطاً أبعد، إذ بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً يُعْلمه بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء[٤٢]. ويبدو أنه وضح لسكان المدن في جنوب الشام أنه لا يمكن لهم الاستمرار في عداء الإسلام بعد أن أسلم الأعراب النازلون حولهم. وكان هذا الأمر من أهم الأسباب التي أجبرت الطائف من قبل على الاستسلام للرسول، لأن جميع من حولها من قبائل أسلم، ولم يعد أحد سواها يناصب الرسول العداء، فما كان منها إلا أن سلّمت بما سلّم به سواها.

أما القبائل التي كانت تنزل المواقع الأبعد شمالاً فلم تُذعن للرسول في حياته: فقبيلة بهراء، وغالبية جذام، وغالبية لخم، وغالبية القين، وغالبية كلب، وتنوخ، وسليح، وعاملة، وبطون غسان وبلي التي كانت تنزل الأرض السورية، فقد كانوا على عداء مع الرسول، أو كانوا بعيدين عنه بحيث لم تقم بينهم وبينه أية اتصالات، ويقودنا ذلك، فضلاً عما نعرفه عن الردّة التي قامت بعد وفاة الرسول والتي شملت الكثير ممن أظهر له الطاعة والولاء في حياته، إلى القول بأن إسلام غالبية من أسلم، والصلح الذي قبل به من قبل، كان نتيجة لمظاهر القوة التي أظهرتها دولة الرسول في أخريات أيام حياته.

محمود العابدي، **الآثار الإسلامية في فلسطين وشرق الأردن**، عمان، ١٩٧٣.
مصطفى الشهابي، **الزراعة العملية الحديثة**، مكتبة السفاريني، ١٩٣٥.
ـــــ، **الأشجار والأنجم المثمرة**، دمشق، ١٩٢٤.
مصطفى مراد الدباغ، **الموجز في تاريخ فلسطين**، بيروت، دار الغد للطباعة والنشر، ١٩٥٧.
ـــــ، **الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين**، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.
ـــــ، **بلادنا فلسطين**، بيروت، منشورات دار الطليعة، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٦.
ـــــ، **الديار اليافية**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢.
منظمة المدن العربية، **كنوز القدس**، إيطاليا، ١٩٨٣.
ناصر النقشبندي، **الدينار الإسلامي في المتحف العراقي**، بغداد، ١٩٥٣.
نبيه عاقل، **الامبراطورية البيزنطية**، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٦٩.
ـــــ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دمشق، ١٩٧٣.
ـــــ، **خلافة بني أمية**، دمشق، ١٩٧٣.
نجدة خماش، **الإدارة في العصر الأموي**، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٠.
نقولا زياده، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، هدية مجلة المقتطف، القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٩٤٣.
يوسف درويش غوانمة، **الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي**، عمان، ١٩٨٤.

ثالثاً ـ البحـوث:

إحسان عباس، «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرن الرابع والخامس»، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠.
أحمد قاسم جمعة، «العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى»، بحث مقدم إلى **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**.
سمير شما، «نقود ضربت بمناسبات تاريخية بفلسطين»، بحث قدّم إلى **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**، ونشر في دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، المجلد الأول، مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤.
عبد القادر ريحاوي، «تاريخ الحرم القدسي وآثاره (الأقصى وقبة الصخرة في تاريخ فن العمارة)»، بحث مقدم إلى **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**.
عواد مجيد الأعظمي، «تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم العثماني»، بحث منشور في **المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار**، العدد الثالث، ١٩٧٤.
غازي رجب، «المسجد الأقصى»، بحث منشور في **مجلة سومر**، مجلد ٢٨، ١٩٧٢.
فواز أحمد طوقان، «مقال الحائر في العمارة الإسلامية»، بحث قدم في **المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية**، ١٩٧٤.
محمد الخولي، «نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر الإسلام والعهد الأموي»، بحث منشور في وقائع **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**، المجلد الأول، ط. مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤.
محمد أبو الفرج العش، «النقود العربية الإسلامية: مصدرٍ وثائقي للتاريخ والفن»، بحث مقدم إلى **المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام**، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٧٤.
ناصر الدين الأسد، «وقعة أجنادين، دراسة تحليلية للمصادر والروايات»، بحث مقدم إلى **المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**، الندوة الثانية، المنعقد ما بين ٢٤ ـ ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ، الموافق ١٦ ـ ٢٢ آذار ١٩٨٥، بإشراف الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان.

رابعاً ـ المراجـع الأجنبية:

Canard, M., *Histoire de la Dynastie de Jazira et de Syrie*, Paris, 1952.
Creswell, K.A.C., *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Pelican Books, 1958.
Donner, F., *The Early Islamic Conquests*, Princeton, Princeton University Press, 1981.
Lane Poole, S., *Catalogue of Coins in the Khedivial Library*, London, 1897.
Le Strange, G., *Palestine under the Muslims*, (ed.) 1890.
Lewis, B., *The Arabs in History*, London, 1950.
Rice, D.T., *Islamic Art*, London, 1965.
Sauvaget, J., *Alep*, Paris, 1942.
Shaban, M.A., *Islamic History*, C.U.P., 1971.
Walker, J., *Catalogue of Muhammadan Coins*.

خامساً ـ موسوعات ورسائل وحوليات:

حولية دائرة الآثار العامة، عمان.
المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار.
محمد إسماعيل موسى مصطفى، **فلسطين من قبيل الفتح العربي إلى نهاية العصر الأموي**، رسالة ماجستير، جامعة الكويت، ١٩٧٩.
الموسوعة الإسلامية، الطبعة الأولى والطبعة الثانية.
الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، المجلد الأول، ط. مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤.
هيئة الموسوعة الفلسطينية، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، دمشق ١٩٨٤.
وقائع المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٨٠.